# موت الله أم موت الإنسان؟

دمشق في ٢٠٢٤/٢/٢٦، الأب الياس زحلاوي

**كتب الروائي الروسي الكبير "دستويفسكي"، يقول:**

**"إن مات الله، استُبيح كلّ شيء!"**

**وأعلن الفيلسوف الألماني نيتشه، بعد فترة وجيزة، يقول:**

**"إن الله قد مات وانقضى!"**

**هل يسعنا أن ننكر أنّ كلّاً منهما كان يتمتّع بنظرة ثاقبة؟**

**فاليوم، لا بد للإنسان من أن يكون مصاباً بالجهل أو بالعمى، كي لا يتبيّن في موضوعيّة كلّيّة، أنّ القوى الفاعلة، والإنجازات الحاسمة في العالم المعاصر، ما كان منها على الأرض والبحر والفضاء، قد تخلّت على نحو مطلق، لا عن الله وحسب، بل أيضاً عن كلّ إحالة دينية، وأخلاقية، بله وإنسانية. وهل يدهشنا اليوم، أن يكون عالمنا هذا، بكلّيّته، على شفير هاوية، بحيث بات يهدّد بقاء كوكبنا الرائع؟**

**أترك لجميع الاختصاصيّين في شؤون التاريخ، والفكر، والدين، والعلم، والاقتصاد، والسياسة، والمعلوماتية، والاستراتيجيّات الأرضية منها والبحرية والفضائية، أن يبحثوا وينقّبوا عن تفسير وتسويغ لعالم، على مثل هذا القدر من الغنى، فيما هو أكثر من هشّ!**

**وإني لأرى من واجبي، بوصفي كاهناً عربيّاً كاثوليكيّاً من سورية، أن ألحّ في طرح السؤال الذي اخترته عنواناً لهذه المقاربة.**

**هل هذا يعني أنه تكفينا العودة ببساطة إلى الله، كي يتحقّق خلاص الجنس البشريّ وكوكبنا الأرضي؟**

**إنه لمن السذاجة التفكير على هذا النحو. ومع أنني أراه الحل أو المآل الوحيد... ولكني أرى من الضرورة بمكان التذكير بأنّ البشريّة كلّها قد سمعت، بطريقة أو بأخرى، صوت الله تحت كلّ سماء. إلّا أني هنا، أخصّ بالذكر المسيحيين، وقبلهم إخوتنا اليهود، وبعدهم إخوتنا المسلمين. وقد لا يكون من النافل أن نتذكر في هذه الأزمنة القاحلة إيمانيّاً، هذه أو تلك من التجلّيات الرفيعة، لدى كلّ من هذه الديانات الثلاث.**

**ولأبدأ بإخوتنا اليهود، فأكتفي بذكر واقعة واحدة، أجل واحدة، ولكنّها بالغة الرمزيّة، وقد ورد ذكرها في الفصل (٢١)، من سفر الملوك الأول، في العهد القديم.**

**إنّها قصّة كَرْم يملكه فَلّاح يهودي، لا عقب له، يدعى "نابوت". وقد أراد ملك السامرة، ويدعى "آحاب"، الذي حكم في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، أن يقتني هذا الكرم، ليلحقه بأراضيه الشاسعة أصلاً. فتمنّع "نابوت" عن التنازل له عن الأرض. فسعت زوجة الملك، واسمها "جيزابل"، إلى قتله، وحثّت الملك على التمتّع بامتلاك هذه الأرض، وهو بصحبة حاشيته. وإذ بالنبيّ "إيليّا" يحضر بأمر من "يهوه"، ويطلق في وجه الملك وحاشيته، نبوءة مزلزلة، يعلمه فيها بموته الفظيع والوشيك في أرض "نابوت" بالذات، وبموت زوجته الملكة أمام قصرهما!**

وكان أن تحقّقت هذه النبوءة، بعد فترة وجيزة.

يتّضح لكل من يتاح له التأمّل في قصة كرم «نابوت"، على ضوء التاريخ البشري، أنها باتت رمزاً بحجم العالم كله! إلا أنها تتحقق أيضاً، ومنذ (٧٥) عاماً على أرض فلسطين، ومنذ خمسة أشهر، ولكن بطريقة بالغة الهول، في غزة. وعلى الرغم من تعميمنا هذا الرمز على مستوى العالم كله، فلا بد لنا من أن نعترف بأنه كان أبداً يفتقر إلى عنصر رئيس، وأنا أعني به الأصوات النبوية، المندّدة بالجرائم المتعاقبة والمتعاظمة بُعداً وهَولاً، على امتداد الوطن العربي.

وفي المسيحية، فإن الإيمان الصريح فيها يعلن أنّ الله بذاته قد أصبح إنساناً، حبّاً بالبشرية جمعاء، الماضية، والحاضرة، والآتية. وقد شاء أن يعيش في فلسطين، فقيراً بين أفقر الفقراء، ولكن مفعماً بحبّ لامتناهٍ، شاء له أن يمتد إلى الأبد، وعلى مدى الأرض كلها. ثم إنّه صرّح مراراً، وفي وضوح باهر، أنّه يتمثّل في كلّ إنسان، وعلى الأخص في أكثرهم فقراً وحرماناً وتهميشاً... وقد مضى بتصريحاته هذه بعيداً، فأعلن عن تمثّله المطلق مع هذه الفئة من البشر، بحيث إنّه جعل الموقف منهم، على الأرض، المعيار الأوحد للحكم الأبدي الذي سيطلقه في الآخرة، على كل إنسان!

وعلى الرغم من ذلك، فقد انتهى على صليب، وهو يغفر لجميع جلّاديه، بمن فيهم اليهود.

هنا، لا أرى من النافل التذكير ببعض توصياته، إذ يبدو واضحاً أنها باتت مغيّبة بالكلّيّة عن آفاق "المتجبّرين" وأعوانهم الكثيرين في جميع الديانات، ومنهم، بكلّ أسف، كثير من المسؤولين في كنائس الغرب، وعلى رأسهم الڤاتيكان!

ولقد قال يسوع، في ما قال:

– "ما من حبٍّ أعظم من أن يبذلَ الإنسانُ نفسَه،

فداءً عن أحبّائِه". (يوحنا ١٥/١٣)

– "إنّ ابن البشر لم يأتِ ليُخدَم،

بل ليَخدُم». (متى ٢٠/٢٨)

– "طوبى لصانعي السّلام،

فإنّهم أبناءَ الله يُدعَون". (متى ٥/٩)

– "لا يستطيع أحدٌ أن يخدمَ سَيِّدَيْن،

لا تستطيعون أن تعبدوا الله والمال". (متى ٦/٢٤)

– "إنّ كلَّ ما صنعتُموه إلى واحد من إخوتي هؤلاء،

إلى واحد من الأصاغر، فإليّ قد صنعتموه". (متى ٢٥/٤٠)

ويعرف الجميع أنّ حياة المسيحيّين الأوّلين، لم تكن سهلة قط. فلقد تعرّضوا في فلسطين أوّلاً، ثمّ على نطاق الإمبراطوريّة الرومانيّة كلها، بدءاً من دمشق، لاضطهاد شرس ودائم، على يد السلطات الرومانية واليهود في آن واحد.

وحدها، أجل وحدها، شهادة إيمانهم البطولي، استطاعت أن تتغلّب على حقد الوثنيين القهّار، ولكن دون أن تسكّن غضب اليهود. وأخيراً، أصدر الإمبراطور قسطنطين، عام (٣١٣)، في "ميلانو"، إعلاناً عاماً، اعترف فيه للمسيحيّين بحقّهم في ممارسة شعائر إيمانهم، أسوةً بسائر مؤمني الديانات الأخرى.

ويؤسفني أن أقول إنّ هذا التاريخ المشؤوم، قد سجّل سقوطاً بطيئاً، ولكن متواصلاً، لكنيسة المسيح كلها، حتى اليوم، في التجربة الثالثة، التي كان يسوع قد استبعدها بقوة، في مواجهته الشيطان. (متى ٤/٨-١١).

قد يبدو مثل هذا التشخيص مفرطاً. حسبي، بوصفي كاهناً كاثوليكيّاً، أن أدعو كلّ متحذلق، إلى قراءة كتاب حديث جداً، نشر عام (١٩٩٧)، بلغات ثلاث في آن واحد، هي الإيطالية والإنكليزية والفرنسية، بمبادرة من البابا "يوحنا بولس الثاني". وقد وضعه صديقه الشخصي، الصحفي الإيطالي، "لويجي أكاتوللي"، تحت عنوان مدهش، هو "عندما يطلب البابا الغفران". وفي الواقع، فإنّ هذا الكتاب يضم (٩٤) تصريحاً رسمياً، أدلى بها البابا نفسه، هنا وهناك على نطاق العالم، في مناسبات احتفالية... وفيها، كان هذا البابا يطلب الغفران في آن واحد، من الله والبشر، عن المساوئ الرهيبة التي حدثت عبر التاريخ بسبب من الكنيسة. وإني لأذكر أهمَّها: ظاهرة اللاسامية، وانجرار السلطات الكنسية، المتسارع وراء البذخ والتعالي... ونظام الرق... والمشاريع الاستعماريّة المسمّاة "حملات صليبيّة"... ومحاكم التفتيش ... والإبادات المتتابعة في القارة الأميركية إثر اكتشافها، ثم في أستراليا والشرق الأقصى، وأفريقيا... والاتّجار بالزنوج... وتسلّط كنيسة روما حيال السلطات السياسيّة وحركات الإصلاح... والحروب الدينيّة... والانقسامات داخل الكنيسة، في الشرق والغرب على السواء... ومختلف أشكال التواطؤ مع الأنظمة الاستبدادية... وإسدال الشرعية على الكثير من أشكال الظلم في العالم...

ولقد اتضح أنّ البابا "يوحنا بولس الثاني"، أراد بهذا النهج، خلافاً للعديد من كبار المسؤولين في الڤاتيكان، أن يراجع ماضي الكنيسة الكاثوليكيّة القاتم، على ضوء المقتضيات الإنجيليّة، في روح من النزاهة الفكرية والإنسانيّة.

وإني، فضلاً عن ذلك، بوصفي كاهناً عربياً من سورية، أرى من واجبي أن أشير إلى السلوك الأكثر من مشبوه، الذي تنتهجه الكنيسة الغربية كلّها، حيال المآسي المروّعة التي تجتاح، بين حين وآخر، وعلى نحو مفجع، العالم العربي كله على نحو خاص، منذ صدور "وعد بلفور" الشهير، عام (١٩١٧)، والذي يتعلق بإنشاء ما سُمّي ببراءة "الوطن القومي لليهود"، في فلسطين، والذي أُرفق بهذا التوضيح "البريء": "دون أي مساس بحقوق السكان الأصليّين"!...

وهل يجوز لأحد أن يتجاهل الكوارث المختلفة التي أعقبت إنشاء هذا "الوطن القومي اليهودي" المزعوم، منذ ذلك الحين، لا في فلسطين وحسب، ولكن أيضاً على امتداد الوطن العربي كلّه؟

وفي سبيل المزيد من الموضوعية، أدعو أيضاً لقراءة هذا أو ذاك، من كتب التاريخ، التي وضعها بهذا الشأن كتّاب يهود، بل إسرائيليّون... وإني لأذكر منهم: "دومينيك فيدال"، في كتابه "خطيئة إسرائيل الأصليّة" (عام ١٩٩٧)، و"إسرائيل شاحاق"، في كتابه: "عنصرية دولة إسرائيل" (عام ١٩٦٦)، و"جيلاد أتزمون" في كتابه: "قصة إستير" (عام ٢٠١٢)، و"إيلان هاليفي"، في كتابه، "تحت إسرائيل، فلسطين" (عام ١٩٧٨)، و"إيلان بابيه"، في كتابه

**"دعاية إسرائيل" (عام ٢٠١٦)، و"إسرائيل شامير"، في كتابه "أزهار الجليل" (عام ٢٠٠٤)، و"شارل أندرلان"، في كتابه "بالنار والدم" (عام ٢٠٠٨).**

**كما أني، في سبيل المزيد من المصداقية، أسارع إلى ذكر تواريخ الحروب المتعاقبة: ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣... وهل لنا أن ننسى مسارعة فرنسا وبريطانيا إلى إنشاء "مركز ديمونا النووي" في إسرائيل، ما بين عام (١٩٥٥–١٩٥٦)... والاجتياحات المتكررة للبنان، ولا سيما منذ عام (١٩٨٢)، حتى حرب عام (٢٠٠٦) في الجنوب؟... ثم هل يسعنا أن نتجاهل الحرب الأهلية في لبنان (١٩٧٣–١٩٩٠)، والحرب المبرمجة بين العراق وإيران (١٩٨٠–١٩٨٨)، واجتياح العراق للكويت (١٩٩٠)، كما خطّطت له الولايات المتحدة، وما أعقبه من حرب دولية بقيادة الولايات المتحدة، على العراق (١٩٩١–٢٠٠٣...)؟ وهل لنا أن ننسى الثورة المزعومة في تونس (أواخر عام ٢٠١٠) وفي مصر (أوائل عام ٢٠١١)، وأخيراً في ليبيا (٢٠١١)؟ وإن كل ذلك قد تُوّج "بالربيع العربي" الشهير في سورية، بدءاً من منتصف آذار عام ٢٠١١!**

**والحال أنّه، خلال جميع هذه الحروب الجهنّمية، التي خطّطت لها دولة الإجرام بامتياز، الولايات المتحدة، خدمة لإسرائيل، لم يُسمَع قط، أجل لم يُسمَع قط، أي احتجاج ضد إسرائيل، لا من الكنيسة الغربية، ولا من الدول الغربية المسؤولة.**

**وإن الحرب القائمة، التي فجّرتها المقاومة الفلسطينيّة في غزة، يوم ٢٠٢٣/١٠/٧، والتي جابهتها «إسرائيل» بعملية إبادة مفجعة، لم تستطع أن تحرّر الكنيسة الغربية كلّها، وعلى رأسها الڤاتيكان، من صمت القبور المستبدّ بها! ومع ذلك، فإنّ الرأي العام في الغرب، وقد كان حتى تلك الفترة، شبه مخدّر بإعلام في غاية الدراية، قد انتفض بسرعة. وأخذ الناس يتدفّقون دون مهادنة، منذ أشهر، في المدن الكبرى، على مستوى العالم كله، وهم يعلنون تضامنهم مع الفلسطينيّين... كما أنّ "محكمة العدل الدوليّة" في "لاهاي"، قد انتهت إلى إدانة «إسرائيل»! إلا أنّ صمت كنيسة الغرب كلّها يتواصل على نحو محيّر، في تنكّر صارخ لأوضح مقتضيات الإنجيل... وأبسط الأخلاق الإنسانيّة!...**

**على كل حال، فإن ما بدر من البابا فرنسيس، من ردود أفعال متأخرة، يكتنفها غموض مطلق. فإن أحداث غزة تعود إلى ٢٠٢٣/١٠/٧، في حين أن أول تصريح صدر عن البابا بشأن غزة، يعود إلى ٢٠٢٣/١٢/١٦، إثر مقتل سيدتين مسيحيّتين في إحدى كنيستَي غزّة... وأما تصريحه الثاني فقد صدر في أوائل شهر كانون الثاني/ يناير، من عام ٢٠٢٤، وقد ندّد فيه بما دعاه "مخاطر تأجّج اللاسامية"!...**

**لكم يؤسفني، يا صاحب القداسة، أن أذكّرك بأن اللاسامية هي محض ابتكار من الكنيسة بعد قسطنطين، وقد أفضت في الواقع إلى اجتياح المجتمع الغربي كله، طوال قرون وقرون. ويؤسفني مرة أخرى أن أقول إن هذه اللاسامية لم تتوقف إلّا في عهد هتلر! فأن يكون كلّ ذلك قد ترك في أعماق الغرب كله، عقدة ذنب وبيلة حقاً، من يجرؤ على إنكاره؟ وأن يكون أيضاً قد غذّى لدى اليهود عامة – فضلاً عن "يقينهم" بتفوّقهم على البشر جميعاً، بفعل "اختيارهم الإلهي" المزعوم – كراهية مفترسة ضدّ المسيحيّين، وبالتالي ضد البشريّة جمعاء، أمر بات على درجة كبيرة من الوضوح.**

ولكن في كلّ ذلك، ما الذي يلزم الكنيسة بإطباق العين والفم على نحو مطلق، على الجرائم المتلاحقة، التي ترتكبها "إسرائيل" في فلسطين والعالم العربي، منذ (٧٥) عاماً؟ ثم إن هذه الجرائم قد تخطت في غزة أقصى الأهوال، وهي، في ذاتها، ليست سوى تنكر مطلق لكلّ ما هو إنسانيّ لدى الإسرائيلي، وإنكار بالفعل نفسه، لكل ما هو إنساني لدى الفلسطيني! أبهذه الطريقة، ترجو الكنيسة المغفرة لها، من هذه الجريمة الألفية، المسمّاة لاسامية؟

ألم يحن الوقت الذي تدرك فيه الكنيسة، مرة واحدة وإلى الأبد، أنه يستحيل كلّياً التكفير عن جريمة، بجريمة أبشع! أفلا يتوجّب اليوم الإعلان الصريح بأنّ الكنيسة، بعد قسطنطين، لو كانت اقتدت بيسوع المصلوب، فغفرت ليهود الإمبراطورية الرومانية، بدل استصدار قوانين ظالمة بحقّهم، أملاً واهياً منها بحملهم على اعتناق المسيحية، ما كانت اللاسامية اللعينة قد وُجِدت، وكان مسرى التاريخ البشريّ كله قد تحوّل تحوّلاً جذريّاً؟...

أخيراً، آن لي أن أحاول اكتشاف إسهام الإسلام في الحضارة الإنسانية، تحت رعاية الله.

في مواجهة ظاهرة "الرُّهاب الإسلامي" (الإسلاموفوبيا)، الذي أخذ يجتاح العالم، والغرب على الأخص، أرى من واجبي بوصفي كاهناً كاثوليكيّاً وعربيّاً في سورية، أن أذكّر بحقيقتين تاريخيّتين، يخشى، إن أُغفلتا، أن تبوء كلّ مقاربة لهذا الأمر، بالفشل.

الأولى منهما حديثة، وتحتوي شقّين، فيما الثانية تعود إلى بداية فتوحات الإسلام، وخلال الخلافة الأمويّة، وقد لازمته عبر القرون حتى اليوم.

يعود الشق الأول من الحقيقة الأولى، إلى الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، حيث هاجر عشرات الألوف من عرب شمال إفريقيا إلى أوروبا، ولا سيما إلى فرنسا، إذ كان الكثيرون منهم قد قاتلوا مع القوات الفرنسية، خلال الحرب. كانت مختلف الوعود والآمال قد دفعتهم إلى الهجرة، وانتهى بهم الأمر في الغالب، إلى القيام بأعمال الطرق والبناء، التي كان الغربيون يأنفون من أدائها، وقد أُرغِم معظمهم بقرار عنصري من الحكومات، على الإقامة في ضواحي المدن الكبرى، في فرنسا وأوروبا، وحُرموا بذلك من الاندماج الفعال في المجتمعات الأوروبية عموماً. وشيئاً فشيئاً، شكّلوا تجمعات منعزلة، وشبه معزولة عن معظم السكّان. وفي مجمل الأحوال، كانت ردود أفعالهم، بين حين وآخر، كثيفة وعنيفة، كثيراً ما توحي بأيّام قاتمة في المستقبل، فيما لو وُجِد مَن يريد "استخدامهم"، أو حتّى تحدّيهم!

وأمّا الشق الثاني من الحقيقة الأولى، فهو ليس سوى "الإسلام الجهادي"، الذي فبركته على مرأى ومسمع من العالم أجمع، الولايات المتحدة وأجراؤها الكثيرون في الأرض، بقصد إحلال "الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان"، في البلدان "المتمرّدة"، التي تقاوم العولمة المفترسة.

وأما الحقيقة التاريخية الثانية التي تخصّ الإسلام، فقد أتت، كالأولى، كما يبدو، بفعل الوقائع، وليس بفعل الإيمان.

ما من أحد يجهل أن الفتوحات الإسلامية الأولى كانت من أسرعها انتشاراً في الأرض. ولكن أخشى ألا يعرف الكثيرون أن الفاتحين المسلمين كانوا من أكثر الفاتحين ذكاء! وخصوصاً أولئك الذين دخلوا دمشق عام (٦٣٥).

وقدّموا الدليل القاطع على ذلك، عندما دخلوا القدس، عام (٦٣٩)، وفتحوا مصر عام (٦٤١)، ولا سيما عندما فتحوا قرطبة في الأندلس، عام (٧١١)، حيث استمر حكمهم حتى عام (١٤٩٢). ذلك بأنّهم احترموا ما عاهدوا الشعوب المقهورة عليه، في حياتهم، ومساكنهم، وأعمالهم، وإداراتهم المدنية، وأماكن العبادة لديهم، مقابل ضريبة، اتضح في دمشق مثلاً، إنها كانت دون الضريبة التي كانوا يدفعونها لسادتهم السابقين، مسيحيّي بيزنطة!... في الوقت الذي كانت لديهم السلطة المطلقة على فعل ما يُغري الفاتحين عادة... ثم حدث في دمشق أيضاً، أن اتّفق المسلمون مع السلطات الدينية فيها، على إقامة صلواتهم في كنيسة يوحنا المعمدان العظيمة، التي كانت تحتلّ قلب المدينة، إذ لم يكن للمسلمين بعد مساجد يصلّون فيها. ثم إن المسلمين، في جميع هذه الفتوحات، عرفوا أن يتعاونوا مع الإدارات المدنية المحلّية، حتى إنّهم كلّفوا مسيحيّين أو يهوداً أيضاً، ببعض أهم المراكز لديهم.

بصريح العبارة، كانت الفتوحات عهوداً من التعاون والتعايش بين المسلمين والمسيحيّين واليهود، عرفتها المجتمعات الإسلامية، دون المجتمعات الغربية كلها. وإني لأشير على من له ذرة من شك حول هذا الأمر، بقراءة المؤرخين اليهود، بل الإسرائيليّين. وأذكر منهم، على نحو خاص، الدبلوماسي الإسرائيلي، "آبا إيبان"، في كتابه "شعبي"، الصادر في فرنسا، عام (١٩٧٥)، والحاخام اليهودي الفرنسي، "جوزي أيزنبرغ"، في كتابه "تاريخ لليهود"، الصادر في فرنسا، عام (١٩٧٠)، والمؤرخ اليهودي الأميركي، "أبرام ليون ساخار"، في كتابه الموسوعي "تاريخ اليهود"، الصادر في فرنسا، عام (١٩٧٣).

وإنه ليبدو أن سياسة التسامح هذه، التي انتهجها الإسلام في معظم البلدان المفتوحة، منذ البداية، قد مورست أيضاً حيث انتشر الإسلام. بالطبع، إن ذلك لا ينفي حدوث أشكال من العنف والظلم، كثيراً ما تسببها أحياناً نشوة السلطة، أو تقلبات ما في مزاج هذا أو ذاك من الخلفاء، أو ممن يحكمون باسمهم، في إمبراطورياتهم الشاسعة!

وثمّة سؤال هام يُطرح حول المصدر الذي كان هؤلاء الفاتحون المسلمون الأوائل، ينهلون منه هذا الروح من التسامح والتعاون، الذي مكّنهم من إحداث هذا العيش الاستثنائي المشترك، طوال التاريخ كلّه، مع المسيحيّين واليهود!

تُرى، أوليس هذا هو التحدّي الأكبر، الذي يترقّبه عالمنا اليوم؟ في وجه حرب متوحّشة، تخطط لها الصهيونية العالمية ومن يقف خلفها، وتنفّذها أيدي أجرائها المفترسين، بقصد القضاء على الإسلام السمح، بعد أن كادت تقضي في الغرب كلّه على المسيحية، فيما هي في طريقها –كما تتوهّم– إلى القضاء عليها في الشرق العربي كلّه، فتعلن عندها موت الله بعد أن قضت على الإنسان!

تُرى، من هو القائل إنّ غداً لناظره قريب؟

الأب الياس زحلاوي

دمشق ٢٠٢٤/٢/٢٦